



الذهاب إلى الحرب أسهل بكثير من العودة منها، هكذا يقول التاريخ، ومن عادته ألا يكذب، تحتاج الطلقة الأولى إلى شجاعة أو تهور، تحتاج الطلقة الأخيرة إلى واقعية تساعد على تجربة الخيبات ومرارات التسويفات، وفي الحروب التي يمكن أن ترتدي ولو زوراً نكهة دينية أو مذهبية تتقدم الخسائر على الأرباح حتى لدى المنتصر، ففي هذا النوع من الحروب لا مكان لضريبة قضائية أو أخيرة، على الذين يستعدون للاحتفال بتورط الجيش الروسي في أفغانستان جديدة أو فيتنام عربية أن يتمهلوا قليلاً.

المسرح مختلف بتركيبته وموقعه فضلاً عن تغير المشهد الدولي، ثم أنت لا نزال في بدايات هذا التدخل، ومن المبكر الخروج باستنتاجات من هذا النوع، وإذا كان يمكن وصف فلاديمير بوتين بالمعامر لتدخله عسكرياً في نزاع بهذا التعقيد فإن من التسرع اعتباره حتى الآن مقاماً ألقى بيلاده في حرب بلا حدود، لا بد من الانتظار فهو أفضل مستشار.

على الذين يستعدون للاحتفال بقلب المعادلة في سورية وطرد الولايات المتحدة من الشرق الأوسط الرهيب أن يتمهلوا قليلاً. لا يعلن النصر في مطلع الحرب وقبل اتضاح مجرياتها وخواتيمها، الوضع السوري شديد التعقيد ولا يسمح بانتصارات مدوية، ويصعب الاعتقاد أن بوتين يخطط لإعادة الوضع السوري إلى ما كان عليه قبل أربعة أعوام لأن ذلك متذر، ويصعب

تصور أنه يخطط لطعن المعارضة السورية بمجملها ولو كلفه ذلك انهيار علاقات بلاده بالعالم العربي، ثم أن معركة بهذا الحجم تلقي على روسيا مسؤولية إعادة إعمار ما دمرته الحرب ولا شيء يوحي بأن اقتصادها قادر على النهوض بمثل هذه الأعباء، هنا أيضاً الانتظار أفضل مستشار.

على الذين يعتقدون أننا في الطريق إلى أزمة تشبه أزمة الصواريخ الكوبية أن يتمهلوا قليلاً، سوريا ليست قبلة السواحل الأميركيّة، إنها بعيدة، ولم تكن أصلاً في المعسكر الأميركي، ثم أن هذه المقتلة الواسعة تدور على أرض بلد تبدو حكومته مرشحة حالياً للعيش تحت قبعتين روسية وإيرانية أو الوقوع تحت انتدابين، سوريا ليست كوبا، وبوتين ليس خروتشوف، وأوباما ليس جون كينيدي، تحمل الأزمات ملامح مكانها وزمانها على رغم عبر الماضي أو ماراته.

لا بد من الانتظار لمعرفة أهداف التدخل العسكري الروسي وحدوده.

هل جاء الجيش الروسي لمحاربة «داعش» أم لقسم ظهر المعارضة السورية؟

هل جاء لضمان حدود «سوريا المفيدة» وإجراء تعديلات طفيفة عليها أم لدفع المنطقة غير المفيدة نحو المزيد من التشرذم والانهيار والأفغنة والصوملة؟

هل جاء للمراقبة في مناطق النظام لجزء مفرد في الحل حين تنضج ظروفه أم أنه دخل الحرب وفي جيشه حل سيقدمه؟

هل يراهن على إعادة إنتاج النظام نفسه مع عمليات تجميل محدودة أم أنه يخطط للحصول من النظام الذي أنقذه وطمأن قاعدته الصلبة على تنازلات جدية تسمح بعملية سياسية يمكن تسويقها عربياً ودولياً؟

أسئلة أخرى لا بد منها!

هل سيدفع النظام ثمن المظلة الروسية تنازلات تفتح باب الحل أم سيستنتاج عكس ذلك؟

وهل تقبل إيران حلاً تحت قبعة الجنرال الروسي بعدما كانت تراهن على انتصار النظام تحت قبعة الجنرال سليماني؟

ليس هناك حل في سوريا يمكن أن يعطي إيران ما كانت تتمتع به قبل اندلاع الأحداث. وليس هناك حل يوفر لـ«حزب الله» ما كان متوفراً له عشيّة الأحداث.

بكلام أوضح. الحل القابل للعيش لا بد أن يتضمن شراكة فعلية بين المكونات. هذه المشاركة تدخل بالتأكيد تعديلاً في سياسات سوريا الداخلية وفي علاقتها العربية والإسلامية والدولية.

تستطيع موسكو التعايش مع حل من هذا النوع لكن السؤال هو عن طهران. ثم إذا كان الحل في سوريا يقوم بالضرورة على تعديلات في الشراكة فإن حلفاء إيران في بغداد سيجدون أنفسهم مطالبين بجعل مشاركة السنة في السلطة فعلية وحقيقة على رغم اختلاف النسب السكانية بين البلدين. لا انتصار على «داعش» من دون معالجة قلق السنة في «الهلال».

وجه التدخل العسكري الروسي في سوريا صفة جديدة إلى صورة أميركا وصدقيتها. تردد أوباما متعب لحلفاء بلاده وأصدقائها. لكن بوتين لا يملك ترف إخفاء نواياه طويلاً. يقدم خلال أسابيع مشروعًا مقنعاً للحل أو ينزلق إلى حرب يصعب حسمها أو الخروج منها. طريقة دعم الكنيسة الروسية لحربه لم تكن حصيفة. أي دخول له في مواجهة طويلة مع مشاعر العالم العربي ستجعل بلاده تفوز بلقب «الشيطان الأكبر». لتفادي اللقب يحتاج إلى تنازلات جدية من النظام الذي جاء الإنقاذ. لغرقه في حرب طويلة على أرض سوريا أثمان على أرض روسيا نفسها وفي الحزام الإسلامي على حدودها.

التاريخ شيخ وقور علمته الأيام. على من يرتكب الطلقة الأولى أن يمتلك تصوراً فعلياً لتقريب موعد الطلقة الأخيرة. اندفع القيصر في مجازفة كبرى. يخرج بكأس صانع الحل أو يرجع بلقب «الشيطان الأكبر».

الحياة اللندنية

المصادر: